

محمد علي والتاريخ

رأينا كيف بدأت النهضة الجديدة في ميدان التأليف التاريخي في مصر في نهاية القرن الثامن عشر على أيدي شيوخ من الأزهر برز منهم عبد الرحمن الجبرتي ، وأنها كانت نهضة تلقائية ظهرت مع تبشير النهضة الفكرية العامة التي كانت توشك على الظهور في أواخر القرن الثامن عشر ، والتي ظهر من طلائعها الشيوخ الشبراوي ومرتضى الزبيدي وحسن العطار وإسماعيل الخشاب .

وفي أوائل القرن التاسع عشر ولي محمد علي حكم مصر باختيار الشعب ، وظل يحكم مصر نحو نصف قرن (١٨٠٥ - ١٨٤٨) ، وبدأ منذ اللحظة الأولى سياسة إصلاحية جديدة تعتمد اعتماداً كبيراً على النقل عن الغرب ، ففتح كثيراً من المدارس الجديدة على النظام الأوربي ، وأرسل الكثيرين من الشبان المصريين في بعثات إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة هناك ، وتخرج الطلاب من المدارس الجديدة ، وعاد المبعوثون من بعثاتهم ، وشارك هؤلاء وأولئك مشاركة فعالة جدية في إقامة صرح النهضة التي بدأها محمد علي .

ومع هذه النهضة العامة استمرت النهضة التاريخية التي بدأها الجبرتي في طريقها، ولكنها اتخذت سيلا آخر، وتأثرت بعوامل جديدة كثيرة.

اعتمدت الحركة العلمية الثقافية في عصر محمد علي اعتماداً كلياً على الترجمة، وحركة التاريخ لم تشد عن هذا الاتجاه، فهي جزء من الحركة الثقافية العامة، ولهذا فقد ترجم في عصر محمد علي - مع ما ترجم - عدد كبير من كتب التاريخ الأوربية.

وقد قام بترجمة هذه الكتب التاريخية عدد من موظفي الحكومة إجابة لرغبة محمد علي نفسه، فقد كان يجب أن يقرأ هذه التواريخ ويفيد منها، وذلك أن محمد علي كان يرى نفسه - وهو منشىء دولة جديدة وصاحب سياسة جديدة في الحكم - في حاجة إلى أن يقرأ ويدرس تراجم أمثاله من القواد والملوك ليفيد من خبرتهم وتجاربهم، ويتجنب أخطاءهم.

قال محمد علي مرة للدكتور بورنج Bowring في حديث له: «لقد أخبرني الكولونيل دوهامل C. Duhamel «أنني أصبح رجلاً عظيماً إذا أنا قرأت التاريخ وألمت بالألفاظ اللطيفة التي يمكن أن أعثر عليها في الكتب، ولكنني الآن لست رجل ألفاظ بل رجل أعمال»، ثم عاد فقال في نفس الحديث: «لقد نصحتني الكولونيل أن أدرس التاريخ لأتعلم منه الحكم، ولكنني وصلت سنّاً لاتسمح

لى بدراسة التاريخ ، لقد كتب إلى ولى يطلب تعليماتى عندما أحاطت به الصعاب ، غير أننى رأيت أن خير تعليمات هى أن أذهب إليه بنفسى ، وقد سافرت إلى يافا وأخضعت الفتنة حالا ، وهذا هو الحكم العملى «^(١) .

هذه كانت خطة محمد على فى الحكم ، العمل لا الكلام ، غير أن تاريخه يثبتنا بأنه لم يهمل هذه النصيحة ، بل لقد أقبل على كتب التاريخ والتراجم ونظم الحكم بوازع أول من نفسه ، ووازع ثان من هذه النصائح التى كان يسديها إليه بعض أصدقائه من الأوربيين ، فترجمت له إلى اللغة التركية كتب فى سيرة النبى محمد ، وفى تاريخ الاسكندر ، ونابليون ، وكاترين ملكة روسيا ، وترجم له تاريخ إيطاليا ، وكتاب الأمير ليكافيللى ، ومقدمة ابن خلدون . . . الخ .

وفى ما يلى بيان تفصيلى بما ترجم من هذه الكتب ، وقد ترجمها جميعاً موظفون يجيدون الفرنسية والتركية ، أو الفرنسية والعربية ، وهم مجموعة عجيبة ، فيهم السورى واليونانى والتركى^(٢) ، وبعض هذه الكتب طبع والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً :

(١) Bowring : *Report on Egypt and Candia*, P. 145.

(٢) يبدو أن محمد على كان قد أنشأ فى القلعة غرفة للترجمة لترجم له خاصة ما يأمر بترجمته ، وأن معظم هذه الكتب التى نذكرها ترجمت فى هذه الغرفة ، أما أعضاء هذه الغرفة فهم المترجمون المذكورون إلى جانب =

١ - ترجمة مظهر التقديس بخروج الفرنسيين ، تأليف المؤرخ
المصرى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، ترجمه عن العربية إلى التركية
السيد أحمد عاصم أفندى ، وفرغ من ترجمته فى غرة ربيع الأول
سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠) ، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً^(١)
فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٨٨٥٤ .

٢ - الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير ، تأليف
مكيافلى ، ترجمه عن الإيطالية إلى العربية الأب رفايل أنطون
زاخور ، ولا تزال نسخته المخطوطة - بخط المترجم - محفوظة
فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٥ تاريخ ، وقد فصلنا الكلام
عن هذا الكتاب ، وعن ترجمته مرة ثانية إلى اللغة التركية ،
وعن رأى محمد على فى الكتاب ، وعن أشار عليه بترجمة الكتاب
وقراءته فى فصل خاص من فصول كتابنا « تاريخ الترجمة والحركة

= هذه الكتب ، يؤيد ترجمتنا هذا رواية رحالة إنجليزى معاصر زار هذه
الغرفة بالقلعة وذكر أسماء هؤلاء المترجمين ؛ هذا الرحالة هو سانت جون
Saint John ، فقد قال فى كتابه *Egypt and Mohamed Ali. VI P.*
127-129 أنه زار فى القلعة غرفة كانت بها لجنة تقوم بترجمة بعض
الأوراق والكتب ، وذكر من أسماء المترجمين بها : Kalvagi (هو
چاكو فاكى أرجيروبولو مترجم قريته تاريخى إلى اللغة التركية) و Artauin
Effendi (هو أرئين أفندى) ، و Yaussoffi Effendi و Stephan Effendi
(هو أسطفان أفندى) .

(١) انظر فهرس الكتب التركية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

الثقافية في عصر محمد علي»^(١)، وذكرنا في ذلك الفصل أن محمد علي أمر بهذه المناسبة فترجمت له مقدمة ابن خلدون إلى اللغة التركية ليقارن بينها وبين كتاب الأمير .

٣ - « التلخيصات المتعلقة بتدبير أمور سلطنة الدولة العثمانية » تأليف الأمير قوچه مصطفى بك الكورجه لي ، فاتح بغداد . ومن أصحاب السلطان مراد خان الرابع ، ألفها وقدمها له حينما وقع الاختلال وظهرت الفتن في أوائل سلطنته ، ترجمه عن التركية إلى اللغة العربية عبد الله أفندي عزيز بن خليل الكاتب والمترجم بديوان الخديوي باسكندرية ، وكتب له مقدمة في صورة « عرض حال » ورفعها إلى محمد علي باشا ، أتم ترجمته في سنة ١٢٤١ (١٨٢٥) ، ولا زال هذا الكتاب مخطوطاً ومعه الأصل التركي في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

(١) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي « ص ٨٠ - ٨٢ وراجع أيضا :
Maria Nallino: *Interno a Due Traduzioni Arabe Del "Principe" Del Machiavelli (Oriente Moderno, 1931, P. 604-616).*

Charles Bachatly: *Un Manuscrit Autographe de Don Raphael (Bulletin de l'Institut d' Egypte XIII, 1931, P. 27)-35) & Un Membre Oriental du Premier Institut d' Egypte-Don Raphael-(1759-1831) (Bulletin de l' Institut d' Egypte, t XI, II, 1934-1935. P. 237-260). St. John : Egypt and Mohamed Ali, vol, 2. P. 453-454.*

٤ - قترنيه تاريخي ، تأليف المؤرخ الفرنسي كاسترا ، وهو كتاب في تاريخ الأباطورة كاترين الثانية ، وبه مقدمة قصيرة عن تاريخ روسيا ، ترجمه عن الفرنسية إلى التركية « چا كوفاكى أرجيربولو » الموظف والمترجم بالديوان الخديوى ، وقد طبع في بولاق سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) ثم أعيد طبعه في سنة ١٢٤٦ (١٨٣١) تحت عنوان : « ايكنجى قترنيه نام روسية ايمبراتريجه نك تاريخى » بعد أن راجعه وصححه سعد الله أمدى أفندى .

٥ - تاريخ نابليون بونابرت ، وهو مذكراته التي كتبها بنفسه حينما كان منفياً في جزيرة سانت هيلانه ، ترجم عن الفرنسية إلى التركية وطبع في بولاق سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) ، ولم أعثر على اسم مترجمه .

٦ - ترجمه سير الحلبي ، وهو ترجمة السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، ترجمها عن العربية إلى التركية سعيد أحمد يلم ، وطبعت في بولاق سنة ١٢٤٨ (١٨٣٨) .

٧ - ترجمة تاريخ دولة إيطاليا ، تأليف المؤرخ الإيطالى « بوتنا » ترجمه إلى اللغة التركية عبد الله أفندى عزيز وحسن أفندى الكاتبان بالديوان الخديوى ، وطبع في مطبعة سراى

الاسكندرية^(١) سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٨ — تاريخ نابليون بونابرتة تأليف « الدوق دي روثيجو »
ترجمه إلى التركية المترجمان السابقان ، وطبع في مطبعة سراي
الاسكندرية^(٢) سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) .

٩ — سفارت نامه رفاعة بك . وهي رحلة رفاعة إلى باريس ،
ترجمها عن العربية إلى التركية — بأمر من محمد علي — المولى
رستم أفندي بسيم العرضالجى بالدائرة السنية الخديوية ، وطبع
في بولاق سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) .

١٠ — شرح قصيدة البردة ، ترجمه عن العربية إلى التركية
أحمد أفندي مصطفى ، وطبع في بولاق سنة ١٢٥٦ (١٨٤١) .
هذه هي الكتب التاريخية التي ترجمت في عصر محمد علي

(١) و (٢) يبدو أن هذين الكتابين ترجما تحقيقا لرغبة إبراهيم باشا ،
والدافع لترجمتهما واضح ، فقد ترجما في ١٢٤٨ (١٨٣٣) والحرب
السورية الأولى على وشك الانتهاء . كتب حسن أفندي إلى إبراهيم باشا في ٩
جمادى الآخرة سنة ١٢٥١ يذكر له أنه أنجز الباقي من ترجمة تاريخ إيطاليا
(عابدين ، محفظة ٢٥٢ رقم ٢٠) ، وفي ٢١ رمضان ١٢٤٨ كتب
إبراهيم باشا إلى سامى بك يوصيه أن يأمر عزيز أفندي القائم على طبع تاريخ
نابليون بالحد والنشاط لإخراج الأجزاء الباقية (عابدين محفظة ٢٤٣
رقم ١٥٣ مكرر) ، وفي ٨ شوال ١٢٤٨ أرسل زكى أفندي إلى إبراهيم باشا
بما يفيد أنه بعث إليه ثلاثة أجزاء أخرى من تاريخ نابليون الذى طبع حديثا
بمعرفة عزيز أفندي (عابدين دفتر ٤٠١ ، وتحت الرقم ٤٠٢ إشارة إلى أن
حسن أفندي التاتار نقل هذا الكتاب إلى العربية . انظر أيضا عابدين
محفظة ٢٤٧ رقم ١٩٦ بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٢٤٩) .

وبأمراه إلى اللغة التركية تبين في وضوح اتجاهه نحو تثقيف نفسه ثقافة تاريخية واسعة ، ونستطيع أن نضيف إليها ما ترجمه خريجو مدرسة الألسن إلى اللغة العربية من كتب في تاريخ أوروبا في عصورها المختلفة ، وتاريخ فرنسا وبطرس الأكبر (وستحدث عنها بالتفصيل فيما بعد) فما لا شك فيه أن كثيراً من هذه الكتب كانت تقرأ لمحمد علي أو تعرض عليه فيقرأها قبل طبعها .

ونلاحظ أخيراً أن هذه الكتب جميعها ترجمت تحقيقاً لرغبات محمد علي أو لرغبات ابنه إبراهيم ، ولولا هذه الرغبات ما ترجمت هذه الكتب ، ومما يلفت النظر أنه كثيراً ما كانت تتفق رغبة محمد علي مع رغبة ابنه إبراهيم في ترجمة كثير من هذه الكتب ، ففي ٢١ رمضان سنة ١٢٤٨ كتب إبراهيم باشا إلى والده يخبره أن مختار أفندي الدويدار كان قد ترجم « وصايا فردريك الأكبر إلى قواده » وهو في باريس ، ويقترح الموافقة على طبعها^(١) ، ومن العجيب أن هذا الكتاب كان واحداً من الكتب الأولى التي ترجمت في عصر محمد علي ، فقد ترجمه عن الفرنسية إلى التركية « شاني زاده محمد عطاء الله »^(٢) في سنة ١٢٢٠ ، وأمر محمد علي بطبعه في مطبعة بولاق بعد إنشائها ، وليس في مقدمة الكتاب

(١) عابدين دفتر ٢٤٣ ، رقم ٤٤ - ٤٦ .

(٢) ترجم هذا الكتاب تحت عنوان : « وصايا-نامه سفرية » ،

ويقع في ١٤٥ صفحة من القطع الصغير .

أو خاتمه ما يبين السنة التي طبع فيها ، ولكنني أرجح أنه طبع
حوالي سنة ١٨٢٢ أو ١٨٢٣^(١) . ولهذا كتب محمد علي إلى ابنه
في ٨ شوال يخبره بأن هذا الكتاب سبق أن ترجم وطبع^(٢) .
هذه الكتب التاريخية المترجمة إلى اللغة التركية أفادت محمد
علي حقاً ، كما أفادت ابنه إبراهيم وبعض القواد وكبار موظفي
الحكومة من الأتراك أو ممن كانوا يعرفون اللغة التركية ، وقد
تكون قررت أو وزعت على تلاميذ بعض المدارس التي كانت
تدرس اللغة التركية ، ولكن أثرها مع هذا كان محدوداً ،
فلم تنتشر بين المصريين ولم يقرأوها ، وإنما سيكون الأثر واضحاً
وقوياً للكتب التاريخية التي ترجمها رفاعة الطهطاوي وتلاميذه
في مدرسة الألسن إلى اللغة العربية .

(١) انظر : الشيال : تاريخ الترجمة ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٠٤ .